

الرّجال في عُيون النّساء

إذا كان الغزل في الشّعر العربي قائما أغلبه على غزل الرّجال بالنّساء فإنّ بعض الأخبار الواردة في كتب التراث تؤكد على أنّ المرأة العربية في كلّ العصور قد عبّرت هي أيضا عن ولعها بالرّجل و تعلقها بصفات الكمال والجمال فيه.

فهذه أمّ أبان بنت عتبة بن ربيعة قد خطبها عمر بن خطاب بعد أن مات زوجها يزيد بن أبي سفيان فقالت عندئذ : إنه لا يدخل إلا عابسا و لا يخرج إلا عابسا ، ثم خطبها الزبير فقالت : يدُّ له على السّوط و يدُّ له على قروني و خطبها علي بن أبي طالب فقالت: ليس للنّساء فيه حظ، و خطبها طلحة فأجابت و تزوجته .

فما كان من علي بن أبي طالب إلا أن دخل عليها ذات يوم و قال لها: رددت منّا من رددت و تزوّجت ابن بنت الحضرمي ؟ فقالت له: القضاء و القدر فقال عليّ: بل إنك تزوّجت أجملنا مرآة و أجودنا كفا و أكثرنا خيرا على أهله. و كأنه بذلك حدّد الصّفات المحبّبة في الرّجل لدى المرأة العربية

و يُروى كذلك أن أبا بكر كان قد مرّ في خلافته بطريق من طرق المدينة فسمع إحدى الجوّاري تنشد:

و عشقته من قبل قطع تمايمي
متمايسا مثل القضيب النّاعم
و كأن نور البدر سنّة وجهه
ينمو و يصعد في دبابه هاشم
وأنا التي لعب الغرام بقلبها
قُتلت في حُبِّ محمد بن القاسم

فدقّ عليها الباب فخرجت إليه فقال: ويلك. أحرّة أم مملوكة ؟ فقالت: مملوكة فبعث إلى مولاها و اشتراها منه و بعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال له : هؤلاء فتن الرجال ، فكم مات بهم كريم و أنّهم بهنّ سليم

و هذه الواقعة التي نقلها أبو غسان المهدي تبين لنا مدى سماحة أبي بكر في مثل هذه المواقف التي تفضح فيها المرأة عواطفها.

و تُروى قصة أخرى عن امرأة من نساء المدينة أيضا، فقد عشقت فتى من بني سليم يقال له نصر بن حجاج الذي كان أحسن أهل زمانه وجها حتى ضنيت من حبه و من الوجد به حتى لهجت بذكره ذات ليلة قائلة:
هل من سبيل إلى الخمر فأشربها
أم هل سبيل إلى نصر بني حجاج

فسمعها عمر بن الخطاب و هو ماّر بدارها عند غنائها لهذا البيت، فلما أصبح دعاه و قال له: لقد فتنت نساء المدينة يا ابن حجاج فقال له: و أيّ ذنب لي في ذلك يا أمير المؤمنين ؟
قال عمر : صدقت ، الذنب لي أن تركتك في دار الهجرة .
ثم أركبه جملا و سيّره إلى البصرة فكتب نصر بن حجاج إليه قائلاً:
ظننت بي الظن الذي ليس بعده
بقاء ما لي في الندى كلام
و أصبحت منفيا على غير ريبة
و قد كان لي بالمكّتين مقام
سيمنعني مما تظنّ تكّرّمي
و آباءٌ صدق سالفون كرام

فلما بلغ هذا الشعر عمر بن الخطاب لم يأذن له بالعودة إلى المدينة وأقطعه أرضا و دارا بالبصرة .

نلاحظ بعد ذلك أن المجتمع العربي في المدن والأمصار قد تحوّل عن قيمه القديمة بسبب الخيرات التي وزدت من الفتوحات فأصبح السلم الاجتماعي يقوم على ركائز أخرى غير الفتوة والنسب وبدأت قيم جديدة منها المال والثراء يحسب لها الحساب في مكانة الرجل وخطوته لدى المرأة .

فعندما مرّ رجل من بني سعد بحيّ من أحياء العرب لمح فتاة بارعة الحسن فخطبها فسألت عن حرفته و ما له قال لها شعرا:

و سائلةٍ ما حرفتي قلت حرفتي
مقارعة الأبطال في كل شارق
إذا عرضت خيل لخيّل رأيتني
أمام رعيّل الخيل أحمي حقائقي

فما كان من الفتاة إلا أن كتبت إليه قائلة:

ألا إنما أبغي جوادا بماله
كریما محياه كثير الحدائق

فَتَى هُمُّهُ مُدُّ كَانَ حُودًا خَرِيدَةً
يعانقها في الليل فوق التُّمارق

فشتان بين صورة فتى الأحلام لدى هذه الفتاة المنعمّة وبين هذا الفارس
الذي فات أوانه في ذلك العصر .

ففي تاريخ الدب العربي ثمة أخبار عديدة تثبت أن المرأة العربية قد أمكن
لها في الكثير من المناسبات أن تعبّر عن رأيها في إختيار زوجها حسب
ذوقها الخاص مثل المرأة التي تقدم لخطبتها شيخ و كهل و شابّ فقالت
مبيّنة قرارها:

أيا ربّ لا تجعل شبابي وبهجتي
لشيخ يعنّيني ولا لُغلام
و لكن لكهل قد علا الشيب رأسه
قَرُوج لأحراج النّساء حُسام

فقد اختارت هذه المرأة الرّجل الكهل الذي جرّب أمور الحياة والذي قد لاح
الشيب عليه فهو كالحسام مضاء و عزما .
و بعد:
فهل يمكن القول إن الغزل هو من نصيب الرّجال في النساء فقط؟؟